مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٦) العدد (٤) نيسان (٢٠٠٩)

الوجع الشعري
(الدلالة الغائبة واللغة الحاضرة)
لامية العرب أنموذجاً

د. شيماء ادريس محمد

ملخص البحث

إنّ شعرية النص امر مرتبط بتفاعل العناصر المشكلة لبنيته الشعرية فتتداخل وتتشارك معا في انتاج دلالاته وتنويع تقنيات لغته لذا يتكئ الشاعر على عدة علاقات نصية وذاتية تتضافر جميعا للتعبير عن وجعه الشعري والنفسي الذي يشكل اللحظات الابداعية التي تولد فيها القصيدة.

فانتاج النص عزف منفرد يحيل الى جدلية الحضور والغياب للدلالة واللغة الدالة على الوجع الشعري فكأن الشاعر يضع أنامله على تلك الثقوب ليلامس مواجعه فيترك توقيعاً رمزياً وخيالياً على تلك المواجع.

وكلا الوجعين انتاج النص، وتحديد افقه الدلالي وتقنياته اللغوية، والوجع الذاتي الشخصي والظروف المسيطرة على تبلور التدفق الشعوري من عدة مكونات نفسية وذاتية – شكلت حضوراً متميزاً في التجربة الشعرية العربية القديمة وخاصة عند الشنفرى لذا حاولنا تبيان صور هذا الوجع وقضاياه بوصفه بنية تحيل الى موضوعات عدة نواتها الدلالية الرئيسة هي الشاعر والآخر اللذان تنطلق منهما دلالات النص فكانا الوسيلة البنائية التي أثارت الأسئلة للاجابة عن جوهر الوجود.

الدلالة الغائبة

من اللافت للانتباه في تجربة الشنفرى الشعرية تداخل فكرتي الوجع الذاتي والنصي التي تكتنز فيها الدوال وتعبر عن حشد من القيم والمعاني والافكار والرموز والعلاقات المحملة بظلال وطاقات تأويلية توحي للمتلقي ولا تكشف له كل ابعاد النص، بل تترك المجال فسيحا لاخراج الدلالات والمفردات من معانيها المعجمية وتحويلها الى اشارات وعلاقات لغوية لها القدرة على اختراق الظاهر والسطحي وكشف تموجات الشاعر الداخلية ذات القدرة الابداعية على انتاج الدلالات.

وعليه تشكل الذات بؤرة اهتمام الشاعر في اللامية، لذا تأخذ في مسار النص ودلالاته سياقات وتوصيفات متعددة تبعا للحدث وطبيعة الحال ووضعية الآخر (الانسان) في المجتمع وافكاره تجاه الذات والوجود الانساني.

وبتعاقب هذه الدلالات والاحداث شهدت الذات الشاعرة واقعين متغايرين وإنْ تواصلا برمزية اللغة الحاضرة وخصائصها العلائقية، وكأن الشاعر يبحث عن وجود مغاير يقبض فيه على كل شيء، ويستبطنه على طريقة الصعاليك وتداعيات الحال على وفق مسار التجربة الشعرية، ليضعنا في زمنه الخاص عندما رفض (آخر النحن) ورغب بعالم مغاير وآخر مختلف، في حركة مضادة تبغي التحرر من مفردات ودلالات اطّرت بنيات الفكر العربي في عصر ما قبل الاسلام وسجنته داخل محنتها الانغلاقية (اعراف القبيلة) المتمثلة بـ (القلق، الشعور الحاد بالقهر، الرفض، الموت الاجتماعي... الخ) والتي تمثل بؤرة الوجع النفسي ضمن بنية رمزية تتوهج بالتدفق الدلالي من عدة مكونات وعلائق نصية تعكس علاقات حضورية في الزمن الذي توحي فيه بوجود علاقات غائبة تحيل على الغائب الدلالي.

لذا استهل الشاعر نصه بعدة ملفوظات عبرت عن الازدواج الشعوري إزاء فكرتي الانتماء واللاانتماء، وضيقه ذرعا من مظاهر الاقصاء التي يمور بها المجتمع آنذاك، فقال:[1]

أقيمُوا بني أُمِّي صدورَ مطيِّكم فإنِّي الى قومٍ سِواكمُ لأميَلُ
فقد حُمَّت الحاجاتُ واللَّيلُ مُقمِر وشُدّتْ لطيَّاتٍ مَطايا وارْحُلُ

وفـــي الأرضِ منـــأَى للكـــريمِ عـــن الأذَى وفيهـــا لِمَـــن خـــافَ القِلـــى متعـــزَلُ
لعمرُكَ مـا فـي الارض ضيق علـى امريءِ ســـرى راغبـــاً او راهبـــاً وهـــو يعقِـــلُ
ولـــي دونَكُـــمْ اهلـــونَ: ســـيدٌ عملَّـــسُ وارقَـــطُ زَهلَـــول وعَرفـــاءَ جَيْـــألُ
هـــم الـــرهطُ لا مُســـتودَع السِّـــر ذائـــعُ لـــديهِم ولا الجّـــانِي بمـــا جـــرّ يُخـــذَلُ
وكـــلُّ أبِـــيّ باســـل غيـــرَ إنّنـــي إذا عرضَـــتْ اولـــى الطرائِـــدَ ابسَـــلُ

إن المتن الشعري الذي نحن بصدده يتشكل من عدة قصص قصيرة يسترجع الشاعر حين يبوح بها أوجاعه وهواجسه الوجودية لاجل تشكيل الرؤية الذاتية والانسانية عامة في افقيهما اللامحدود.

لذا لا يعد نصه منغلقا على سيرة واحدة بل يتفرع الى مجموعة من السير (غيرية وذاتية)*، واقعية ومتخيلة يحكيها النص ولغته عن الشاعر بوصفه احد علامات الحدث الشعري، والشخصية المحورية التي ادركت بهاجسها الشعري وما تحمله (الأنا) من امكانات ابداعية وقدرات ذاتية تتسامى لتحقيق نظامها القيمي الخاص.

فيتضح من استهلال النص أن الخطاب موجه للجماعة بصيغة الجمع نحو (أقيموا بني أمي، مطيكم، قوم سواكم..) ليدعم تبؤر دلالة الرفض للنحن الانسانية والميل نحو (نحن مغايرة) في عالم الطبيعة موئله الذي يعود فيه الى ذاته – في صيغة الجمع ايضا – نحو (دونكم، أهلون، هم الرهط، لديهم) وهي مفردات وتراكيب مسبوقة باثبات الرفض والقبول للأنا الشاعرة في مفردة (لي) الفردية والذاتية المحضة الموجهة من المتكلم مباشرة الى المخاطب رفضاً للوجع النفسي والاجتماعي الذي تمارسه القبيلة على امثال الشاعر اذا حاول أي احد منهم الخروج عليها وممارسة حريته.

إذن تحيل البنى السطحية الى اخرى عميقة تبين تضاد العالمين في السلوكيات، بين رفض وقبول (للأنا)، وتحيل ايضا الى تعالقات نصية تمثل ومضات الحال والحدث معا بمحصلة التجربة الشعورية على المستوى الذاتي في عوالمها المادية والمعنوية. وفي سياق رؤيا التواصل التفاعلي مع الذات والقيم والبيئة يعود الشاعر الى عوالم الكينونة المعنوية ابتعادا عن الازمة النفسية وازاحة المعنى المعياري لهيمنة القيم النفعية التي

(فرضت على الاشياء... وتتسم بانها أثر لارادة القوة والسلطة بمعنى أنها قيم مفعولة لا فاعلة)[٢].

لذا يتحد الشاعر مع ذاته وقيمه في كل الظروف، كما في قوله:[٣]

وإن مُـدَّتِ الأَيـدي الـى الـزَّادِ لـم أكُـنْ بــاعجَلِهم اذ اجشَــعُ القــومِ أعجــلُ
ومـــاذاك إلاَّ بســـطةٌ عـــن تُفضـــلٍ علـــيهِم وكـــان الافضَـــلَ المتفضِّـــلُ

إن هذه الاخلاقيات يتحلى بها كل عربي مهما غير اماكنه وسرى به زمنه نحو فضاءات رحبة لأن ثيمة القيم الاصيلة هي العالم الذي ترتئيه الذات الشاعرة وتتخذه ملاذا للتخلص من ضغوط الواقع، فجاءت الاقامة الحينية في هذا العالم علامة تموضع خاص تسعى من خلاله (الأنا) الى تحقيق الامل بامكان الشعر والحلم الذي يراد به تمثيل المستقبل بعيدا عن جحيم الحاضر بالتنقل الى ذوات وانتماءات عدة (راغبا وراهبا)، فيأتي المحكي الشعري منقسما مزدوجا يريد به ان يكون مخلصا للواقعي المرجعي الاساس دون التخلي عن الشعري الرمزي في تحولاته المكانية والانتمائية، كما في قوله:[٤]

وإنّـــي كفـــانِي فَقْـــدُ مـــن لـــيسَ جازِيـــا بِحُســـنَى ولا فـــي قُرْبِـــهِ مُتعلـــلُ
ثلاثـــةُ اصـــحابٍ: فـــؤادٌ مُشَـــيَّعٌ وابـــيضُ اصْـــليتَ وصـــفراءُ عَيْطَـــلُ
هتـــوفُ مـــن المِلْـــسِ المتُـــونِ يَزِينَهـــا رصـــائعُ قـــد نِيطَـــتْ اليهـــا ومَحْمَـــلُ
إذا زلّ عنهـــا الســـهمُ حنّـــت كأنّهـــا مِـــرزأة عَجْلـــى تَـــرِنُّ وتعـــولُ

لأن (النص ظاهرة معقدة مرهونة بعوامل عدة، ولا يمكن اختزالها الى عامل واحد)[٥]. يعبر الشاعر عن ازمته الاشكالية بالمحكي الشعري ابداعيا وفنيا ليتحول الوجع الشعري والذاتي مادياً ومعنوياً الى حافز ومحرك قوي للحصول على القوة والاستمرار في اثبات الذات وتحقيق الحرية التي تحدث عنها الشاعر مباشرة في قوله (وإني كفاني) التي فيها احالة للمفرد المتكلم وانسلاخا من المخاطب الغائب (القبيلة) والانتماء الى آخر مغاير وصحبة جديدة هي بضعة منه متمثلة في (فؤاد مشيع، ابيض اصليت، صفراء عيطل) فيتحدد عالمه بدءا بهذا الازدواج النفسي الدال على سياقين مختلفين للرؤية

بمشترك يتخطى حيزاً الى ذوات أخرى تعاني المشكلة نفسها في الماضي والحاضر والمستقبل فجاءت موزعة بين التخيل والواقع لنفي السلب وتحقيق الايجاب على الصعيد الذاتي والفكري، فقال متحدثا عن نفسه ثانية:[٦].

ولستُ بمِهْيافٍ يُعشّى سَوَامَهُ مُجدَّعَةً سُقبانُها وهي بُهَّلُ*
ولاجُبَّاءً اكَهى مُرِبٍّ بعِرْسِهِ يُطالِعُها في شأنِهِ كيف يفعَلُ
ولاخَرِقٍ هِيْقَ كأنّ فؤادَه يظَلُ به المِكاءُ يعلُو ويَسفَلُ
ولا خَالف داريةً مُتغزِّلِ يَروحُ ويَغدُو داهِناً يتكحَّلُ
ولستُ بعلٍّ شرّهُ دون خيرِهِ الفّ اذا ما رعثْهُ اهتاج اعزَلُ
ولستُ بِمحيارِ الظّلامِ اذا انتحَتْ هدى الهَوجلِ العسيفِ يهماءُ هوجَلُ
إذا الامعَزِّ الصّوانِ لاقى مناسِمِي تطايرَ منّه قادِحٌ ومُفلَّلُ

فالشاعر يبني مقاطع نصه على عدة محاولات تحيل الواقعي الى شعري لذا يؤكد على الحضور المكثف للذات الشاعرة في اتجاه يحافظ فيه ضمن حدود اللحظة الموقعية على صفة المخاطب والحضور معا عبر غرض الفخر الذاتي. وينكشف بالغياب ايضا في اتجاه آخر امكانية الذات على ممارسة الحلم وبعض الحرية والتذكر والامل والغاء افكار ضمن مفردات همشت وجوده، ولاسيما أن له سلوكيات وسمات قيمية تغطي على بعض سلبياته ليشكل (صورة الانسان المزاح عن مركزه لصالح عالم يفلت من سلطته ويخترق حدودها)[٧] بالذات والابداع وهما (القيمة الثابتة التي تتيح بعض التجاوزات وتوهم بتحقيق الحرية المرجوة)[٨] إذن التف الشاعر بشدة حول مركز الذات حرصا عليها من التلاشي فكانت القيم هي العلاقة التي جمعت بين الجسد والعقل في علاقة محورية كتجسيد ارادي للوجع الاجتماعي والتغلب عليه فلا يكون انقطاعا تاما عن الخارج ولا انغلاقا نحو الداخل، فنرى (الذات نفسها على أنها هي الفاعلة)[٩].

لذا تكررت في النص ثيمة النفي والرفض للواقع بورود (لست / لا) ثلاث مرات وكأن الشاعر يبحث لنفسه داخل سكنها (القصيدة) عن سكن آخر لا يتحدد بالمكان او بمفردة لغة النص بل برمزية الحلم والرغبة والتعالق النفسي بين الأنا/ والآخر. كأنها بنيات

لغوية رمزية ابداعية تريد أن تكون عملا ينفي داخل المتخيل النصي قدرية النسيان والعمل من اجل معرفة مالا يقال في حومة اللا انتماء بوصفه وجعا اجتماعيا يؤذي الذات نفسيا. لذا حاول الشاعر التخلص منه بأقل الخسائر عندما اتخذ من الشعر الاداة التي تحول التأزم النفسي للأنا الى توهج ممتلئ بالرؤى والافكار فتنير له جادة خطاه الوجودي، فيخترق حواجز الصمت والوجع بالقول الشعري المعبر عن الدفق الاخلاقي والقيمي للشاعر عندما يمدح نفسه ويفخر بذاته في مختلف الظروف كما في قوله:(١٠).

أُدِيمُ مِطالَ الجُوعِ حتى أَمَيتَهُ ... واضربُ عنه الذِّكرَ صَفحاً فاذهَلُ
واستَفُّ تُربَ الارضِ كيلا يَرَى لَه ... عليَّ من الطَّولِ امرؤٌ متطوِّلُ
ولولا اجتِنابُ الذَّأمِ لم يُلفَ ... مَشرَبٌ يُعاش به إلاّ لديّ ومأكَلُ
ولكنّ نفساً مُرّة لاتُعيم بي ... على الذَّأمِ إلاّ ريثَما أتحوَّلُ
واطوِي على الخَمْصِ الحَوايا كما انطَوَتْ ... خَيوطَةُ مَاري تُغارُ وتَفتَلُ

إن الشنفرى ونصه ذاتان تمتصان الذات والمجتمع والتاريخ والحضارة بشكل متمرد يبدو وكأنه طريقة من اجل جعل دلالات النص تتوالد الى مالا نهاية، وتأكيدا للهوية القائمة على توهج الشعر من ظلمة الوجع فيؤسس الشاعر كينونته الابداعية من تجاذب الاضداد بعضها لبعض كونها متصلة بالقيم العربية وكل امتداداتها الاخلاقية فكان (ضرب الصفح عن الجوع) بقدرة وارادة تمكن من خلالها نسيانه تماما هو دلالة على العفة والقوة والصبر على كل شيء، فعبر عن ذلك بابداع يبوح عن جمالية الذات وقدراتها الفنية، واكد رمزيا وعلنا رغبته في تخطي الازمات وذلك بتغليب فكرة الاحساس بالرضا والراحة بدلاً من تأزيم الشعور بالقهر والقلق.

والجميل في نص الشنفرى الكيفية التي ينتقل بها الى الضياع والالم الى كلمات وصور ورموز وايقاع يتعايش داخلها الشيء وضده عندما يتحدث عن ذاتية (الشاعر والذئب) فالذئب ما هو إلا اشتغال رمزي مكثف مليء بالدلالة الإنسانية بإحالاتها ومرجعياتها المختلف التي تتداخل فيها النفسي والاجتماعي، فيندمج كلا العالمين الإنساني والحيواني في ثنائية تعكس الوعي الحاد بالحضور والغياب وفقدان الهوية، فيختار الشاعر

الذئب بديلاً اجتماعياً عن بني جنسه في قبيلته التي نبذته في عراء الصعلكة والجوع والحرمان وذلك في قوله:(١١)

واغدُو على القُوت الزّهيدِ كما غَدَا ازلُّ تَهادَاهُ التنائِفُ اطحَلُ
غَدَا طاوياً يُعارضُ الرِّيحَ هافياً يَخُوتُ بِاذناب الشِّعاب ويَعْسَلُ
فلمّا لَواهُ القُوتُ من حيثُ أُمَّهُ دعا فأجابتْهُ نظائرُ نُحَّلُ
مُهلهلَةٌ شِيبُ الوجوهِ كأنَّها قِدّاحٌ بكفَّي ياسِرٍ تَتَقلْقَلُ
او الخشرمُ المبعُوثُ حَثْحَثَ دبرَهُ مَحَا بِيضَ ارداهُنَّ سامَ مُعَسَّلُ

يعد الانشغال (بالذات تكثيفا للعلاقات الاجتماعية ومؤشرا على مجموعة من الاهتمامات والافعال والممارسات التي تحقق وجود الفرد وتشركه في ممارسة اجتماعية ترسم له حدود علاقته مع الآخر، ومع الموجودات)(١٢).

لذا جمع الشاعر عبر فاعلية الفن التشبيهي في اول بيت (أغدو على القوت الزهيد كما غدا..). بين عناصر متنافرة بحثا عن التوازن بكل معانيه، فجمع بين ذاته والذئب بوصفه معادلا فنيا مجازيا يستلزم محالا عليه ذهنيا حاضرا، او غائبا تستحضره اللغة الشعرية. فكان الذئب الشبيه في السلوكيات والغايات مع الانسان الشاعر رمز البحث المستمر عن حلول للاقصاءات والقيود التي تعترض طريقه في رحلة البحث عن الهوية وانتماء الشاعر لذاته بوصفها آخر العلامات الدالة على الحقيقة والوجود.

فإذا (كان التعايش مع الظروف، والواقع الجديد، نوعا من العقاب على ما ارتكبه الانسان من خروج على المألوف والمعهود فهو في شكل آخر دعوة الى التحدي واثبات الذات)(١٣).

إنّ الشاعر عندما يبوح بوجعه وتحولاته الانتمائية إنما هي خطوة متميزة لتجاوز الأزمة. لكن يبقى التضاد يلف الصورة والحدث وحال الشاعر لتعود فكرة الانتماء للذات بالظهور عدة مرات حتى وإن شعر الشنفرى برغبته للاستسلام والعودة الى الجماعة، كما في قوله:(١٤).

والفُ وَجْهَ الارضِ عِندَ افتِرَاشِها بأهدأ تَنبيهِ السَناسِنِ قُحَّلُ*

واعـــدَلُ منحوضـــاً كـــأنَّ فُصُوصَـــهُ كِعـــابٍ دَحَاهَـــا لاعِـــبُ فهـــي مُثَّـــلُ
فَـــإِنْ تبتـــئس بالشّـــنفرى ام قَســـطلٍ لمَّـــا اغتبطَـــتْ بالشّـــنفرى قبـــلُ اطـــوَلُ
طريـــدَ جِنايـــاتٍ تياسَـــرْنَ لحمَـــهُ عقيرتَـــــهُ لأيُّهـــــا حُـــــمّ أوَلُ
تنـــاَمُ إذا مانـــامَ يَقْظَـــى عيونُهـــا حُثَاثـــاً إلـــى مكروهِـــهِ تتغلغَـــلُ
وإلـــفُ هُمـــومٍ مـــاتزالُ تعـــودَهُ عيـــادا كحُمَّـــى الربْـــعِ او هـــي أثقِـــلُ
إذا وردَتْ اصـــدَرتُها ثُـــمَّ أنّهَـــا تثـــوبُ فتـــأتِيَ مـــن تُحَيْـــتٍ ومِـــنْ عَـــلُ
فإمّـــا تَرَينـــي كابنَـــةَ الرَحِـــل ضـــاحِيا علـــى رِقبـــة احفَـــى ولا انتَعَّـــلُ

في حومة الخوف بكل الوانه، ووجع التيه بكل صنوفه يعلن الشاعر عن (مفارقة) المرغوب والمرفوض والقيد والحرية وانعكاس الافكار من السلب الى الايجاب متمثلة في (فلسفة الغياب والحضور المبنية على أساس حاجة الانسان الى التجديد والتغيير دائما، فاستمرار الحضور يولد في النفس عادة الرؤية...)[١٥].

وهذا يعني أن صورة الشاعر الايجابية تعتمد في ظهورها على حشد مجموعة من المتضادات لتصل الى قمة المتعة ونفي الغياب كتجربة ادراكية معرفية مغايرة للواقع كما في (تبتئس، اغتبطت) (تنام، مانام) (وردت، اصدرتها) (تثوب، تأتي) (تحيت، عل) فضلا عن الارتكاز الى فن التشبيه (الف هموم: كحمى الربع أو أثقل) فتتعلق التجربة الشعورية هنا بالالم والحب والفقدان وجراحات الذاكرة والآفاق المسدودة وغيرها من المنغصات فيمنح النص للكلمات والافكار قيمة أدبية وفنية متميزة.

إنّ النص الشنفري ليس بنية خطية متتابعة احادية الدلالة بل بنية محورية لولبية يعتمد نمو الحدث فيها على منطق التداخل الدلالي وجدل المتناقضات وتعدد الصور والاصوات فالنص رسم وتشكيل قبلي للتجربة ودلالاتها اللغوية والاسلوبية بوصفها فضاءات واسعة تحتضن كل شيء، وقدرتها على الهدم والبناء تأسيسا لمفهوم جديد للقيم العربية غير المستحبة والجائرة على (الأنا والآخر)، ولولا هذا الهدم ما تبين الجديد. وهكذا اصبحت مدلولات النص مراوغة لدوالها لتمثل غياب الوعي بالآخر لأن تحديد ملامح الذات ورصد اشكالياتها الانتمائية في بنية الفكر القبلي تكاد تكون معدومة لذا يميل

الشاعر مباشرة الى البحث عن ذاته ووجوده في عالم مغاير (وآخر) يولد الاحساس بالوجود والقوة لينسى كينونته المضطهدة في عالمه.

اللغة الحاضرة

في محاولة لاسترجاع ذاكرة الكينونة وعالم النسيان بالاعلان والاضمار كانت اللغة في لامية العرب عنصرا فعالا في بناء علاقاته وتشكيل دلالاته لتنطق بذاتها في النص الشعري الذي يتأسس في اللغة التي تتخذ اوجها متعددة فيكون لها سحرها الخاص. فضلا عن كون مادة النص وموضوعه ومرجعياته ماثلة في اللغة فتتعدد صفات الشاعر كتعدد صفات النص تبعا لمختلف السياقات الوصفية الدالة عليها، فالوجع الشعري سجل حضوره في السياق اللغوي لينتج النص كثافته الدلالية التي تبين بؤرة الحدث وتداعياته وحقيقة التجربة وتعالقاتها، كما في قول الشنفرى:[١٦]

فضَجّ وضجَّتْ بالبراحِ كأنَّها وإيَّاه نَوحٌ فوق عَلياءَ ثُكَّلُ
واغضَى واغضَتْ واتسَى واتَسَتْ به مَراميلُ عزّاها، وعزَّتْهُ مُرمِلُ
شَكَا وشكَتْ ثم ارعَوَى بَعْدوُ ارعَوَتْ وللصبرِ إنْ لم ينفعْ الشّكوُ أجمَلُ

وكما توحي هذه الافعال الماضوية والزيادات الحروفية التي تحول دلالتها من التذكير الى التأنيث، فنرى فعل الاظهار باللغة اضمارا من قبيل استعادة بعض المسلوب من ذات الشاعر والبوح بما يغرق في عتمة اللاانتماء، ويدلل على الحضور برمزية الذئب في مشهد يعبر عن اللعب والجد في استحضار عالم المشاكل المصيرية المتداخلة والمتقاطعة والتي تتضح من خلال الاشارات اللغوية التي تزاحمت في النص وهي (ضج، ضجت/ اغضى، اغضت/ اتسى، اتست به/ مراميل عزاها، عزته مرمل/ شكا، شكت/ ارعوى، وارعوت/ الصبر، الشكو) وهذه الثنائيات وردت هنا بهذا الشكل بسبب ما ينتج عنه من انقطاع عن الماضي وهو ما وجب على الانا الشاعرة أن تعمل عليه في سياق التجربة عبر تعددية الدلالة وتشيؤاتها (وتوظيف الطاقة الشعورية للغة)[١٧] في المفردات

وتشكلاتها والجمل واحالاتها لتتوفر امكانية التواصل مع الفاعلية النصية وذوات النص المتعددة والمتغيرة، فقال:[١٨]

وتشـربُ أُسـآرِي القَطَـا الكُـدْرِ بعـدَمَا سَـــرَتْ قُرْبَـــا احناؤهـــا تتصلْصَـــلُ
همَمْـــتُ وهمَّـــتْ وابتـــدَرنا واســـدَلتْ وشـــمَّرَ مِنّـــي فـــارِطَ متمهَـــلُ
فولَيـــتُ عنهـــا وهْـــي تكبُـــو لعقْـــرِهِ يباشِـــرُهُ منهـــا ذُقُـــونٍ وحوصَـــلُ
كـــأنّ وغاهـــا حُجرَتَيْـــهِ وحولُـــهُ اضـــاميمُ مـــن سِـــفْرِ القبائِـــلِ نُـــزَّلُ
تـــوّافِينَ مـــن شَـــتّىَ اليـــه فَضـــمّها كمـــا ضَـــمَّ اذوادِ الاصـــارِيْمِ مَنهَـــلُ
فَعِبْـــتُ غَشاشَـــا ثـــم مَـــرَّتْ كأنّهـــا مـــع الصّبحِ ركـبٌ مـن إحَاضَـةِ مَجفَـلُ

إن محاولة الشاعر للحديث عن (الأنا) الموغل في الذاتية – عن طريق اتخاذ الطبيعة ملجأ وملاذا درأً للواقع المؤلم وحاجته لوضع البدائل– لاتحرره من نبرة الرغبة بالجماعة او الارتقاء دونها المتمثلة بالمفردات (اسارى القطا، هممت وهمت، فوليت عنها، اضاميم، سفر القبائل، توافين ضم، اذواد، اصاريم) التي تبين الازدواجية الفكرية والنفسية للتجربة الانسانية داخل اللغة والتي حركت النص من الداخل بكل مكوناته ودلالاته ورموزه ليكون اكثر اتصالا بالمعرفة اذ يمكن (اعتباره نهرا خفيا يجري تحت النص وتتشبع منه جذور النص..)[١٩] لأن (الشعر الحقيقي هو الشعر الذي تكمن قيمته الجوهرية في ذاته)[٢٠].

اذن يسفر التوغل في الاعماق – المسكونة بالقلق والوجع النفسي من المجهول – عن ازدواج الذات لتأكيد واقع البقاء في سجن المكان والزمان والقبيلة، او الخروج عليها. لذا لجأ الشاعر الى الجمع بين المفردات وضدها بتكرار الوضعية والمشهد ذاتيهما لاستعادة الرؤى ضمن سياقات متعددة ومتغايرة. وهذا ما اعلن عنه في بداية اللآمية (اميل، ارعواء) في حالة المد والجزر بين (الذات والآخر) وضعف الشاعر في بعض الاوقات حتى كاد أن يرعوي لكن حب البقاء داخل الذات عاد به الى رغبة التحليق بعيداً عن الجماعة الى اخرى يختارها. وعليه نلاحظ تطور القصيدة في نسقها الخطابي اذ تتداخل عناصر الغرض الشعري مع الايقاع واللغة والمرجعية الفكرية لان المعنى جزء من

بناء النص لذا (يغدو الموضوع وشبكة احتضانه تجليا رمزيا مفتوحا على دلالات فردية او عامة، يومية او كيانية لاحصر لها)[٢١]. تشكل الاتجاه الذي لجأ اليه الشاعر لاطلاعنا على مسوغات التحولات التي مر بها في فضاء الانتماء والبحث عن الهوية في كل الازمنة ومتعدد الامكنة، فقال[٢٢]:

فـإنّي لمـولَى الصَّـبرِ اجتـابُ بـزَّه ... على مثلِ قَلبِ السِّمعِ والحَزَمُ افعَلُ*
واعـدَمُ احيانـاً واغنَـى وإنّمـا ... ينـالُ الغِنَـى ذو البعْـدَةِ المتبـذَلُ
فـلا جـزعُ مـن خِلـةٍ متكثِـفٍ ... ولا مـرَحُ تحـت الغِنَـى اتخيَـلُ
ولا تزدهِـي الاجهـالُ حُلُمِـي ولا ارى ... سـؤولاً باعقـابِ الاقاويـلِ انمَـلُ
وليلـةٌ نحـسٍ يصـطَلِي القـوسُ ربَّهـا ... واقطعُـهُ اللآتـي بهـا يتنبَـلُ
دعستُ على غَطْشٍ وبغْشٍ وصُحبتي ... سَـعارَ وارزيـزَ ووجـرَ وافكَـلُ
فايمّـتُ نسـواناً وايتمْـتُ الـدَةً ... وعُـدُّت كمـا أبـدأتُ والليـلُ اليَـلُ
واصـبحَ عنّـي بالغُميصَـاءِ جالسـاً ... فريقـانُ مسـؤولٌ وآخـرَ يَسـألُ
فقـالوا: لقـد هـرَّتْ بليـلٍ كِلابُنـا ... فقلنـا اذئـبٌ عَـسَّ أمْ عَـسَّ فرعَـلُ
فلـم تـكُ إلا نبـأة ثـمَ هومَـتْ ... فقلنـا: قطـاةَ ريـعٍ أمْ ريـعَ اجـدَلُ

بعد أن احاطنا الشاعر بكل متغيراته ودلالات حركة البحث عن معنى ما للوجود، انطلق الى تعميق (الأنا) في مقابل قراءتها في المجموعتين (الانسانية) التي تحاصره وتريد اخضاعه وبالمقابل رفضه لها، (والجماعة الحيوانية) التي بدا واضحا انه يرفضها لاشعوريا لتذبذبه بين البقاء والرحيل الى عالم الذات في مقابل قراءتها للمتغيرات التي تقع تحت تأثير تحولات (الأنا) في سياق التجربة الشعرية كونها الفاعل المحرك في فضاء الذات المحمولة على المتغير، لذا استطرد في تعميق البنية الازدواجية بين (الأنا والآخر) وتأطيرها بالمعنى العميق الذي ينعكس على مرايا الواقع ليوفر للمعنى الشعري اكثر من زاوية للنظر والتخيل فتأتي العلاقة النصية والرموز محملة بما وراء الواقع، لذا حاول السطو على كل مكونات الواقع والبيئة بانتمائه الى مجموعة اخرى متمثلة بـ (الجوع والخوف والرعدة وحالة الجو) لان صراع الشاعر مع (أناه) المزدوجة ومحاولته التمسك

بها وتعددية الاتصال مع الجماعات المختلفة في بيئة، تفرض عليه طوقا يفاقم حالة الوجع النفسي والفكري الذي يظهر في سياق اللغة الشعرية، (إذ أن تحولات اللغة الادبية تمثل الممارسة الجدلية لذات داخل اللغة...)[٢٣] فتم دراسة البنيات الصوتية والتركيبية ذات الصيغة التكرارية لبعض الحروف والاصوات لبناء دلالات النص وفهم العلاقات التي تقوم فيما بينها ويتعلق الامر هنا بحرفي (الفاء والقاف) وما فيهما من تكرار ايقاعي له دلالات ووظائف وضعها الشاعر في سياقها الملائم ليدعو القارئ إلى امعان النظر في انساقها الدلالية بوصفها لغة حوارية حاول فيها الشاعر رفع صوته كي يسمع صوته وصولاً للحرية والانتماء والهوية، ولكن تشارف الذات الشاعرة على الغياب عند امعانها في توصيف الاغتراب والالم واللاهوية في قولها (فريقان، فقالوا، لقد، فقلنا، فرعل، فلم، قطاة) وكأننا بالشاعر يلفظ الصوت وينتظر سماع صداه رغبة في تأكيد الحضور على الرغم من انتشار الغياب وهذا ما يدل عليه المحمول الفعلي والتكرار الصوتي لحرفي (الفاء والقاف) اللذين يمنحان الحدث الشعري الاستمرار في الزمن بصوت الفعل فيتساوى العالم الخارجي والداخلي للأنا الشعرية القادرة على كشف اللثام عن وعي التداخل بين المرئي والمخفي في الواقع ومرآة النفس البشرية لكون الواقع قابلا للانعكاس في اللغة الحاضرة داخل النص والتي تشكل في بعدها الدلالي الفكرة والمعنى ومتعدد الصور. والبنى العميقة في دلالتها التأويلية للشاعر تشكل البعد غير المرئي وما يحمل من مساحات قابلة للتأويل وتعدد القراءات.

إذن تتحول الصور الحسية الى نسق شعري يعتمد على الحدث في المعطى اللغوي ينتج عدة مدلولات تثير المتلقي وفقا لرؤية الشاعر ومعطيات الواقع الخارجي والداخلي للاحداث، فقال الشنفرى[٢٤]:

وخَـرْقٍ كضَـهرِ التِـرسِ قفـرٌ قطعتُـهُ بعـــامِلَتينِ ظهـــرُهُ لـــيسَ يعمَـــلُ
والحقـــــتُ اولاهُ بـــــاخراهُ مُوفيـــــاً علـــى قِنَـــةٍ اقعِـــي مِـــراراً وامثَـــلُ
تـــرودُ الأروِاي الصُّـــحمَ حَـــولِي كأنّهـــا عـــذارَى علـــيهِنَ المُـــلاءَ المُـــذيَّلُ
ويركُـــدْنَ بالآصـــالِ حـــولِي كـــأنّني مـن العُصْمِ ادفـى ينتحِـي الكَـيحَ اعقَـلُ

اذن عبر الشاعر في كل بنيات النص عن ثنائية الحضور والغياب بتكرار الدلالات داخل البنية اللغوية لانه يثير المتلقي الذي يعتمد على افق التوقع للقبض على (الدلالة البؤرة) والتي تحسم الموقف وتضع عناوين النهاية.

ويحين للنهاية أن تلوح في الافق وذلك بالجمع بين الصحراء وانفتاحها على الضياع والموت المعنوي والحرية الموهومة، وبين النهاية الانثوية ومقولة الحب والخصب ودلالات الحياة والجمال والجماعة في (الأراوي، العذارى) فيحضر الازدواج الشعوري من خلال ارتباطه بالصحراء (خرق، قفر) والانثى التي ستمثل الوجود والاستمرار في الحياة (يركدن حولي، بالآصال) فامتزجت الهواجس بدفقة شعورية تعيد الحياة للذات، والحضور للغة التي نسجت الحكايا حول (الأنا والآخر) فالتقط الشاعر عبر تجربته (الجزئي والكلي) في الاحداث من وجوده ليغدو الحدث النصي قائما على المفارقات بين ما هو حاصل في الفكر الجمعي وما هو مستحدث في الذات الشعرية من تحولات تكشف وقوفها على حقيقة حزنها ووجعها الشعري ومعاناة الصياغات اللغوية للعبارات الشعرية وصورها ولغتها واحداثها ومدلولاتها، فضلا عن وقوفها على محنتها الوجودية والقلق الفكري والمعنوي الموجه الى (الآخر) في خطاب شعري على سبيل المشاركة في هموم الحياة وانعكاسات الزمان في ابداعية تؤرخ سيرة غياب تعبر عن الحضور بقوة.

هوامش البحث

(١) لامية العرب / الشنفرى، ٢٧-٢٨-٢٩-٣٠.

(*) السيرة الغيرية: هي ترجمة يتحدث فيها الكاتب عن شخصية ما بصيغة الاخر بدءاً بماضيها وحاضرها والمستقبل.

(٢) نظرية القيم في الفكر المعاصر / صلاح قنصوة، ٣٨.

(٣) لامية العرب، ٣١.

(٤) م. ن، ٣٢-٣٣-٣٤.

(٥) اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث / فاضل ثامر، ١٣١.

(٦) لامية العرب، ٣٤- ٣٥- ٣٦- ٣٧- ٣٨.

(*) مهيافٍ: السريع العطش، اكهى: السيء الخلق، المكاء: جحر الثعلب أو الضب، العسيف: الاخذ على غير الطريق، الصوان: الحجر شديد الصلابة، قادح: الذي تخرج معه النار من شدة وطئه.

(٧) مرحلة المرآة وتشكل الأنا / بالميي، مجلة بيت الحكمة، ع٨، ١٩٨٨، ٣٨٢.

(٨) دراسات في الخطاب / نور الهدى باديس، ١٧٢.

(٩) مقدمة في نظريات الخطاب / ديان مكدونيل، ٤٥.

(١٠) لامية العرب، ٣٩.

(١١) م. ن، ٤١- ٤٢- ٤٣.

(١٢) الانهمام بالذات (تاريخ الجنسانية) / ميشيل فوكو، ١٦٣.

(١٣) الادب العربي بين الاصالة والحداثة / مها خيربك، مجلة التراث العربي، ع٩٦، س٢٤، ٢٠٠٤، (نت).

(١٤) لامية العرب، ٥١- ٥٢- ٥٣- ٥٤.

(*) السناسن: حروف فقار الظهر، لاعب: جاد، حثاثاً: مسرعة.

(١٥) جماليات المعنى الشعري (التشكيل والتأويل) / عبد القادر الرباعي، ٢٦.

(١٦) لامية العرب، ٤٤- ٤٥- ٤٦.

(١٧) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، ٢٩٣.

(١٨) لامية العرب، ٤٧- ٤٨- ٤٩- ٥٠.

(١٩) مع الشعر (اين هي الازمة ؟)/ جودت نور الدين، ٤٥.

(٢٠) نقد الشعر في المغرب الحديث/ عبد الجليل ناظم، ٦٥.

(٢١) الشعر والتلقي/ علي جعفر العلاق، ١٥١.

(٢٢) لامية العرب، ٥٥- ٦٠.

(*) بزه: ثوبه، دعست: طغت، سعار: النار، ارزيز: البرد، غميصاء: موضع بنجد، عس: طاف بالليل أو طلب الصيد بالليل، فرعل: ولد الضبع.

(٢٣) النص والاسلوبية / بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، ١٢.

(٢٤) لامية العرب، ٦٣- ٦٤- ٦٥.

المصادر والمراجع:

- الانهمام بالذات (تاريخ الجنسانية) / ميشيل فوكو، ترجمة: جورج ابو صالح، مركز الانماء القومي، بيروت، دت.
- جماليات المعنى الشعري (التشكيل والتأويل) / عبد القادر الرباعي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الاردن، ١٩٩٩م.
- دراسات في الخطاب / نور الهدى باديس، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ٢٠٠١.
- الشعر والتلقي (دراسة نقدية) / علي جعفر العلاق، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ٢٠٠٢م.
- لامية العرب أو نشيد الصحراء، لشاعر الازد الشنفرى، تحقيق: محمد بديع شريف، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤م.
- اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث / فاضل ثامر، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٨٠.
- مع الشعر (اين هي الازمة؟) / جودت نور الدين، دار الاداب، بيروت، ١٩٩٦م.
- مقالا في الشعر الجاهلي / يوسف اليوسف، دار الحقائق للطبع، ط١، الجزائر ١٩٨٠م.
- النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق / عدنان بن ذريل، مكتبة الاسد منشورات اتحاد الكتابالعرب، دمشق، ٢٠٠٠م. (نت).
- نظرية القيمة في الفكر المعاصر / صلاح قنصوة، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١م.
- مقدمة في نظريات الخطاب / ديان مكدونيل، ترجمة وتقديم: عز الدين اسماعيل، المكتبة الاكاديمية، ط١، ٢٠٠١م.

- نقد الشعر في المغرب الحديث / عبد الجليل ناظم، دار تو بقال، ١٩٩٢م.

الدوريات:

- الادب العربي بين الاصالة والحداثة / مها خير بك، مجلة التراث العربي، ع٩٦ س ٢٤، ٢٠٠٤ (نت).
- مرحلة المرآة وتشكيل الأنا / باليمي، مجلة بيت الحكمة، ع٨، ١٩٨٨، ٣٨٢.

ABSTRACT

The poeticalness of the text is a matter which correlated to the elements' interaction that construct its poetical construction, so they participate and interfere to introduce its indications and vary its linguistics techniques. So that the poet relies on many self and textual relations that cooperate to express his poetical and psychological pains which construct the creation moments in which the poem is borned.

So, the text production is a single lyrism transubstantiates to the absence and existence argumentation for indication and significant language to the poetical pain and as if the poet put his hand on these holes to touch his pains and to give a fantastic and symbolic signature on these pains finally.

Both of pains, the text production and the limitation of significant horizon and liguistical techniques and the self personal pain with the master circumstances upon the being of the emotional flow from many self and psychological elements gave a signal presence in the old Arabic poetical experience for al_ shanfara, so we tried to clarify these pains forms and its issues for its being a construction transubstantiates its main significant nucleus to more than one subject that we can identify as the poet and the other which from theme the texts' indications release, and because of that they have been the constructive instrument that aroused the questions to answer about the existence of being.